# المحاضرة: غايات المدرسة الاستعمارية بالجزائر في أبعادها العملية

*« Ouvrir une école, c'est fermer une prison »»,*

**Louis-Charles Jourdan**[1]

**الأهداف المنشودة:**

- **تعرف الطالب على نموذج تطبيقي لتسخير المدرسة لغايات أيديولوجية "فجّة".**
- **أبرز غايات المدرسة الاستعمارية بالجزائر.**

[1] عبارة دار حولها سجال كبير، بعضهم ينسبها لفيكتور هيغو، أما البض الآخر فيرجعها لنابليون بونابارت، لكن مؤخرا تم ارجاعها Louis-Charles Jourdan. http://groupugo.div.jussieu.fr/groupugo/doc/10-12-18erchadi.pdf

لماذا أدخل الاستعمار "الجهاز المدرسي" للجزائر رغم معارضة الكثير من الفرنسين، خاصة بالعاصمة (La Métropole)؟

هل أُسِّسَت المدرسة لجميع الجزائريين أم لفئة بعينها؟

منذ أن وطئت قدم المستعمر الجزائر، وهي تعمل على تجسيد عملي لسياسة استعمارية عامّة، حيث بقيت الجزائر حتّى 1870-1871 أرض مناورات للجيش الفرنسي، بالموازاة مع ذلك كان العمل على قدم وساق لتشكيل "جزائر جديدة une nouvelle Algérie"، جزائر الاستعمار بامتياز، ذات "عقليّة كولونيالية" عنصرية. عقلية عادت للسّطح بشكل ساطع -أنّها لم تغب يوماً عن أذهان "فاعلي المؤسّسة الفرنسيّة French establishment"[2] - بعد 43 سنة 2005 بقانون 23 فيفري الممجّد للاستعمار في بشمال إفريقيا ووصفه بـ "التّواجد الإيجابي". ولصناعة ذلك كان لابد من أذرع عديدة، متعاضدة، ومنها المدرسة/التّعليم بفلسفتة جديدة، تتلخص في تهديم القائم الأصلي، وتشييد الجديد "اللّقيط"، كل ذلك بغية اخضاع الجزائريين La soumission des algériens ، بإسكاتهم واخماد ثوراتهم الشّعبيّة، وقَبولهم بسياسة الأمر الواقع- الكارثي-. فقد كان هناك تزامن بين تطوّر المدرسة الجمهورية والتّوسع الاستعماري حسب وزير المستعمَرات "ألبرت سارو Albert

---

[2] المؤسّسة establishment كلمة أنجليزية، غالبًا ما تكون ذات معنى سلبي ومزعج، تشير إلى أقلية اجتماعية تمارس سيطرة وهيمنة قوية على المجتمع بأسره. من مرادفاتها "السّلطة القائمة"، "المجموعة الحاكمة"، 'مجموعة الحكم' ، 'المائتى عائلة' ، 'الأُوليغارشِيَة'، "الدولة العميقة"... عرّفها *Dictionnaire des anglicismes* ، سنة 1991 بأنّها "مجموعة قويّة من الأشخاص الأثرياء المتحكّمين والراسخين، يدافعون عن مصالحهم والنّظام القائم*.

*Philip Thody, *Le Franglais: Forbidden English, Forbidden American: Law, Politics and Language in Contemporary France*, A&C Black, 2000, 308 p., p. 123, rubrique Establishment.

Sarraut" تزامن بين جول فيري المستعمِر، وجول فيري رسول المدرسة العلمانية « L’époque de Jules Ferry, le colonisateur, est aussi celle de Jules Ferry, l’apôtre de l’école laïque " كما يذكر (Sarraut, 1931, p. 146).

- كما يسجل آل الاختصاص في ميدان التّعليم والتّكوين بالجزائر الإهمال الواضح والمقصود لتعليم أبناء الجزائريين. بل وتحطيم البُنى الاجتماعية والثّقافية القائمة أنذاك، تحطيمٌ مُمَنهَج للهَوية الأصليّة ودعائمها وآليّات إنتاجها وسَرمَدَتها. باستثناء بعض "التَّجارب التَّعليميّة" المحدودَة النَّتائج، مثل: (التّعليم المشترك، المدارس العربيّة الفرنسية، مدارس البلديات المختلطة) الّتي أعطت نتائج ضعيفة. مع الإشارة الى أنّه رغم أهمية موضوع التّربية التّكوين بالجزائر -وباقي المستعمرات- باعتبارها أصل مظاهر الاعتلال للمدرسة الحاليّة، لا تزال الأعمال العلميّة الرّصينة، خاصّة تلك المتعلّقة بثِيمَة سياسات التّعليم الاستعماري بها في بعده التّبشيري والعِلماني، محدودة وتحتاج لتمحيص أعمق، متعدّد التّخصصات. ومع ذلك، فإنّ القضايا التّعليمية المطروحة ضمن دراسات عامة حول ظاهرة الاستعمار، والفئات المتعلِّمة بمعناها الشّامل، ووُسطاء الاستعمار، والتّعبئة السّياسية، بيّنت الرّوابط الوثيقة بين التّعليم وتنامي تحدّي الهَيمنة الفرنسية، خاصّة بالهند الصّينية (الفيتنام) والسّنغال، حيث تصدّرت جماعات الاحتجاج ضدّها. (Barthélemy, 2010)

برهن على ذلك المستشرق " Auguste Cherbonneau "[3] ،بقوله:

« *Autant l'œuvre dont je suis chargé est propre à assurer notre influence sur la race arabe et à la diriger dans la voie qui convient à notre politique, autant elle est hérissée de difficultés de tout genre. Les enfants arrivent auprès de nous ignorants, paresseux, aveuglés par les préjugés et garnis d'amulettes. Leur vie est à recommencer. Tous ignorent la nécessité du travail ; bien peu pensent à l'avenir. Ce que nous leur apprenons est le renversement de ce qu'ils savent, et les plus jeunes seulement apprécient le bien qu'on leur fait. On appelle notre établissement Collège arabe. Cependant il n'y a d'arabe que la langue et la religion communes à tous. La majeure partie des enfants est d'origine berbère, et il y a, à côté des Kabyles, des Couloughlis et des Arabes berbérisés »*[4].

"بقدر ما يناسب العمل الذي أتحمّل مسؤوليته لضمان تأثيرنا على العِرق العربي وتوجيهه نحو مسار يناسب سياستنا، فإنّه مليء بكثير من الصّعوبات. حيث يأتي الأطفال إلينا أمّيين، كسالى، أعماهم التَّحيُّز للأحكام المسبقة وكثرة التَّمائِم. لذا

---

[3] مستشرق ومعلم فرنسي يتقن العربية، مفتش مدارس التّعليم العالي الإسلامية، مدير المدرسة الإمبراطورية العربية الفرنسية بالجزائر، وأستاذ اللغة العربية بقسنطينة، ومؤسّس جمعية الآثار بقسنطينة. ألّف عديد الكتب التّعليمية والقواميس بالعربية حول تعليم قراءة وكتابة وترجمة العربية الى الفرنسية، والعكس، وحول الثقافة الجزائرية (نوادر المسلمين)، كما نشر حِكم لقمان الحكيم ثم ترجمها للفرنسية. نذكر من بينها:

1. كتاب المخاطبات فيما يحتاجه العرب من الولاة Dialogues arabes : à l'usage des fonctionnaires et des employés de l'Algérie,1858.
2. تعليم القارئ في الخط العربي في العربي، Librairie L. Hachette, 1853 - 158 pages.
3. معجم عربي -فرنسي.
4. Anecdotes musulmanes حكايات المسلمين, *texte arabe, ou Cours d'Arabe élémentaire contenant une série d'anecdotes tirées des auteurs musulmans suivi d'un dictionnaire analytique des mots, des formes et des idiotismes contenus dans le texte*, 1847.
5. Constantine et ses antiquités, Paris : Impr. de E. Thunot, (s. d.,)
6. Leçons de lecture arabe..., Paris : L. Hachette, 1852.

[4] Extrait d'une lettre adressée à Reinaud par Cherbonneau, directeur du collège arabe à Alger. Alger, 20 avril 1864, publié dans le JA, 6e série, t. IV, 1864-2. Cité in :

يجب تجديد حياتهم من جديد. فالكلّ يتجاهل ضرورة العمل، وقلّة منهم يفكّرون في المستقبل. لذا يجب أن نعلّمهم عكس ما يعرفون، لأنّ الصّغار فقط هم من يقدّرون الخير الّذي نقدّمه لهم. ورغم أنّ مؤسّستنا تسمى بالمدرسة العربيّة، الّتي لا نعثر منها مشترك بين الجميع سِوى على اللّغة والدين. فمعظم الأطفال من أصل بربري (أمازيغي)، هناك الكولوغلي، والعربي المُتَبَربَر".

- في1876 يصف الوضع قائلا:" إذا أخذنا بأقوال عديد المتعلّمين les lettrés المسلمين، والمُدعومة بتصريحات وشهادات ضبّاطنا العامّون، التّعليم العام الإسلامي إبان الحملة الاستعمارية كان أقلّ تخلّفاً من الآن...فرغم تراجعه خلال العهد العثماني إلاّ أنّه حافظ على وتيرته وحجمه، حيث كنّا نعدّ أكثر من ألفي مدرسة إبتدائيّة وعليا بعَمالة الجزائر وحدها".
- سياسة تدميرية مقصودة للبِنية التَّحتِيَة والفوقيّة للمجتمع الجزائري، تجسّدت من خلال تهاطل القرارات العسكرية خاصّة، بالاستلاء على المؤسّسات الوَقفيّة كما ذكرنا، غلق وطمس المساجد والمدارس والزّوايا الفاعِلَة ضدّ الاستعمار، وتحويلها لكنائس وثكنات للعسكر، كمسجد كَتْشَاوَة، والتَّضييق القَصدي على التّعليم بها، بمطاردة وسجن ونفي الشّيوخ، العلماء والمعلميين المؤثّرين، وتخريب وسَرقة ونَهبِ مخطوطاتها ومؤلّفاتهم، إمّا بحرقها-أُسوَة بما فعلته كَنيستهم في أوروبا- أو سرقتها ونقلها لفرنسا العاصمة (La métropole). هذا ما عبّر عنه " A. Ducrot قائلا: "يجب عرقلة تطوّر المدرسة الإسلامية Les Medersas والزّوايا، بل بالأحرى تجريد

الجزائريين من أسلحتهم المادّية والمعنويّة"[5]. بالمقابل تمّ تشجيع تَجيِير (تَبيض) نظيراتها المداهِنَة والمبشِّرَة به وبمهمته.

- كتب " Charles JANIER " في مقالته: « Les Medersas Algériennes, De 1850 a1960 »، قائلا:

- *Après 20 années de présence intensifiée dans ces territoires, la France comprend que les musulmans sont très attachés à leurs coutumes et souhaitent que le droit musulman, et non pas le droit français, continue à leur être appliqué en ce qui concerne le statut des personnes, les successions et les immeubles .Pour appliquer ce droit il est indispensable d'avoir des cadis et des fonctionnaires compétents. Or ces cadis et fonctionnaires ne peuvent être formés que dans des écoles spéciales, les Médersas, à l'instar des médersas des souverains de la Berbérie (XIIème – XIVème siècles) qui eux-mêmes s'étaient inspirés des fondations analogues faites dans l'Orient Musulman dès les XIème – XIIème siécles. Cette ancienne tradition avait été négligée par les turcs*.

(JANIER, 2010)

"بعد عشرين عاما من الوجود المكثّف بهذه البلاد، أدركت فرنسا أنّ المسلمين متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم، ويأملون تطبيق الشّريعة الإسلامية بنيهم، وليس القانون الفرنسي، خاصّة فيما يتعلّق الأحوال الشّخصية والميراث والعقارات. لكن

[5] Auguste-Alexandre Ducrot , La Vérité sur l'Algérie ,1871. https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k57894714/f12.textelmage

لتطبيق هذا الحقّ، لابدّ من "قُيّاد*cadis* " وموظفين مختصّين. غير أنّ هؤلاء الموظّفون لا يمكن تكوينهم إلاّ في مدارس خاصّة، وليس في مدارس إسلامية Médersas، ولا مدارس ملوك البربر التّي وُجدَت خلال القرن (12 و13 عشر)، والتّي استقدموا أسسها من الشّرق الإسلامي في وقت مبكّر من القرن الثّاني عشر.

- فقامت السّلطات الاستعمارية باصدار مرسوم 30 سبتمبر 1850 لإنشاء **ثلاث مدارس في الجزائر**: بالمدية وقسنطينة وتلمسان، ثمّ أضيفت لاحقًا مدرسة العاصمة. وظيفتها الأساسية تكوين "شباب مسلم متعلّم"، وفق تعليم شرعي وقانوني وأدبي، وتمكين "النّاجحين" من مناصب إدارية وقضائية، ودينيّة عليا في الدّولة. مدارس متيّكفة مع متطلّبات العالم الحديث للقرن العشرين، ذات قدرة على بلوغ مستوى المدارس الثّانوية الفرنسيّة من أجل فتح أبواب الجامعة لمتمدرِسِيها. لكلّ مدرسة ثلاثة مدرسين مسلمين، يكلّف أحدهم بإدارتها، ومدّة الدّراسات تتم على طورين في كلّ طور ثلاث سنوات. ولم يحدّد أيّ شرط لسِّن قبولهم. من حيث المواد التّعليمية تدرّس جميعها باللّغة العربية. وترتبط بقواعد اللّغة العربية وحروفها، والشّريعة والفقه الإسلامي، والعقيدة. وكان التّعليم مجانيا[6] ومُنحَت منحة دراسية من 100 مائة فرنك لكل طالب من الطّلاب العَشرَة الأوائل. في عام 1859 تقرّر تخصيص مصروف يومي لكلّ تلميذ قدره 0.80 فرنك لتلبيّة احتياجاتهم الغذائيّة (JANIER, 2010). لتتطور الأمور من

[6] بطبيعة الحال سوسيولوجيا لا شيئ مجاني ، خاصة في التربية والتعليم الرسمي وبالأخص الرسمي الاستعماري، فكل حركة وعملية وقرار مدروس العواقب والنتائج سلفا. لذا لا يجب أن ننخدع بكلمة مجاني.

الإشراف العسكري الى الأكاديمي بعد مرسوم 1876، مع تعديل الفئة العمْرِيَة، بأن لا يقل عمر المتمدرِس عن 17 ولا يزيد عن 25 عامًا عند تخرّجه ب"شهادة الدّراسات الإسلامية". وإحكام السّيطرة والاطلاع على ما يحدث داخلها -لعدم ثقة المستعمر في الجزائريين حتىّ ولو قدّموا الوَلاء التّام- تَمَّ اصدار مرسوم بتاريخ 27 يوليو 1883 بتعيين مدرّس للّغة الفرنسية لكل مدرسة كمساعد -بل كمشرف- للمدرسين الثّلاثة للمواد الإسلامية. خاصة وأنّه كان على المدرّسين - وأولياء التّلاميذ- أن يُثبِتوا "حُسنَ السِّيرة والعلاقة" مع السّلطات الفرنسية. فتمّ إضافة اللّغة الفرنسيّة، الرّياضيات والتّاريخ والجغرافيا ضِمن المِنهاج الجديد. ومع منتصف1895 رُقِّيت لمدارس للتّعليم العالي الإسلامي، مع تخصيص قسم عالي بمدرسة الجزائر العاصمة لتكوين موظّفي الخدمة المدنية لأصعب الوظائف (قاضي، قايد، كاتب ضَبط، وإمام مدرِّس mouderrès بالمسجد) مع إضافة سَنَتين للتّكوين.

هذه صورة تخلّد تدشين مدرسة تلمسان (الجامع الكبير) من طرف السّلطات وحَواريها.

Inauguration de la Médersa de Tlemcen par son directeur
Emile JANIER, père de l'auteur de l'article

- ولأنّ "السِّياسة الاستعمارية هي حَفيدة السّياسة الصّناعية la politique coloniale est fille de la politique industrielle " كما صرّح "جول فيري".

يمكن تلخيص **أبرز الغايات الكبرى** من إدخال المدرسة للجزائر في السّياسية، الأيديولوجية والاقتصادية (التّريب لا يعني تراتبية الأسباب لأنّها كانت متزامنة الحدوث والتّفاعل في صيرورة إعادة تنشئة الجزائري، وما لحقها من ردّات فعل مُقاوِمَة). ويمكن تلخيص أبرز غاياتها فيا يأتي:

- **الغاية السّياسية:** نتيجة تفاقم وتوسّع رفض الجزائريين للاستعمار، حاول أن يصل لآذانهم وعقولهم بكلّ الوسائل والسُّبل، فعَمَد لتشكيل وتكوين وتعليم مجموعة من الأهالي Les indigènes ليكونوا وسطاء الجمهورية الفرنسية، وأعيان متميّزين ومتفرِّدين، يعتقدون في عظمة قيم الاستعمار. حيث تمكّن فصيلٌ منهم -

أغلبهم -وليس كلّهم- من أبناء الصَبّايحِيَة[7] والقَيّاد، والقُوميَّة والزّوَاف[8] والمتعاطِفين معها- من بلوغ مستوى التّعليم الثّانوي، ومنهم من واصل التّعليم العالي رَغم قلّتهم، بطبيعة الحال بشرط رِضا المستعمِر عنهم. فالمتمدرس "المحظوظ" من قُبِلَ من مالكي ميكانيزمات الإنتقاء بالمدرسة الفرنسية، ذو أصل (أب/أم/جدّ) مُوالي لها (جسديّاً وفكريّاً، ماديّاً وروحيّاً)، له إمكانات ماديّة لدفع تكاليف التّمدرس، لأنّ السّلطات لم تصادر أراضيه وممتلكاته. هؤلاء "الوُصوليّون Les arrivés" مَثَّلوا "النّخبَة L'Elite" التّي رَام من خلالها المستعمِر إنتاج وإعادة إنتاج مقوّمات وعظمة الهَيمنة الفرنسية، في عقول وقلوب الجزائريين، حيث يكونون بمثابة حُقَن تخذير وتضليل لِبَنِي جِلدتِهم. وتصويرهم كمثقفين ونخبة مُستَنِيرَة، محترمة، من الضّرورة

---

[7] ذكرت بعض المصادر التاريخية أنّ كلمة صِبَايْجِي sipâhi تركية الأصل تعني الجُندي، مأخوذة من لفظ فارسي "سپاهی" بالفرنسية Spahi. تعرف أيضا بالسِبايْسِيَة، وهي فِرَق عسكرية خيَّالَة عَمِيلَة أسَّستها الجيش الفرنسي في معسكراته، بالجزائر أسسها الجنرال"يوسف المملوك"، بعد سقوط العاصمة مباشرة لقهر واحضاع وإذلال الجزائريين بسواعد جزائرية. يشرف عليها عسكري فرنسي برتبة عَقيد أو مُقدّم. حسب : Mirouze, Laurent. « The French Army in the First World War » (Volume 1). ) . أصل الفكرة عثماني حيث كانت لهم مهمة الوساطة بين الدايات والأهالي، ثم تطورت بعد الاحتلال الفرنسي لتقديم أصناف الولاء التام له، وتجنيد كثير من الشباب الجزائريين من مختلف ا لمناطق والاثنيات للأنخراط في الجيش الفرنسي لمحاربة أعداء فرنسا (كل مقاوم للغزو الفرنسي).. استمر هذا التّنظيم بأشكال متعدّدة حتّى الثّورة التحريرية 1954. ومن أغرب شروط الانتساب للتنظيم: يجهر المترشح علناً بانخراطه أمام الضّابط المقتصد وأحد نوابه من الجزائريين على أنّ يكونا شاهدان على ذلك. والثّاني على يُقسِم المترشح على القرآن بولائه لفرنسا فقط.

[8] جاء في متن كتاب Eugène Émile Édouard Perret الموسوم ب« les français en Afrique récit algérien volume 1 » ، 1886،ص 104 : " إذا كان الزّواف يحملون اسم الكتيبة القديمة لزواوة (يقصد التي تشكلت في العهد العثماني) ، فهذا لا يعني أنّ هذا الفيلق (يقصد الذي تشكل في العهد الفرنسي) متكوّن من القبايل بالعكس تماما فهم أقلية فيه، أندجان (الأهالي) السهول، الأندلسين، الكَراغلة إلى آخره، إنخرطوا كلّهم في الزّواف، إلى هؤلاء الأهالي إنظم إليهم كذلك عدد كبير من الفرنسيين ... كتيبة شكلها قائد الحملة العسكرية "دي بورمون" متكونة من جزائريين من مختلف المناطق بوعوده وعلاواته المُغرِيَة حيث إلتحق به أكثر من 500 متطوع من أصول متباينة كراغلة وسود بساكرة قبائل.( https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%A7%D9%81 )

بما كان الاستماع إليها وطاعتها، لأنّها مستقبل الجزائر، ولأنّهم القدوة الّتي يجب أن تتّخذ قُدوَة للجيل الجديد.

- **الغاية الأيديولوجية:** عملت التّرسانة الأيديولوجية والدِّعائية الاستعمارية على نشر وخلق "وعي" أخلاقي وثقافي وديني مبرّر لتواجدها بالجزائر، وفق شعار "المهمّة الحضارية لفرنسا"، باعتبارها رائدة التّنوير كيانها وممثليها وسياساتها بالجزائر- وبكل مستعمراتها-. بالموازاة مع ذلك يتمّ إرجافِ وإشاعَة الأخْبارِ الكاذِبَةً والمُسِيئَةً لمعالم هوية الشّعب الجزائري، مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة بعد مرّة حتّى تمسي وكأنّها صادِقَةٌ الوعد، ذلك لِأَنَّ الإشاعَةَ إنَّما تُهدف لِلتَّرْوِيجِ بِشَيْءٍ غَيْرِ واقِعي واختلاق الِاضْطِراب والتَّزَلْزُلُ في نفوس وعقول المقصود منها.
- **الغاية الاقتصادية:** تمثّلت في تكوين فئة تدرك أبجديات القراءة والكتابة والحساب (متعلِّمة) بمستويات متباينة، حيث الغالبيّة من ذوي التّعليم القاعدي كما ذكرنا، لشُغل وظائف ومهام بورشات ومعامل الكولون Les colons، و"المكاتب العربيّة Les bureau arabe"[9] كمترجمين، أو جامعي الضّرائب من الأهالي، وفق فلسفة تَراتبية النِّظام الرّأسمالي الاستعماري. ومن مفارقات ذلك حتّى هذه الغاية (تعليم الجزائريين ليكونوا قوّة عمل لعجلة النّظام الاستعماري لم تتّأتَى لِجُلّ

[9] **المكاتب العربية Les bureaux arabes**: تنظيم إداري استعماري منذ 1830، يمثل همزة الوصل بين الجنس الأوروبي وعنصر الأهالي les indigènes . مكاتب أنشأتها السلطات الاستعمارية لاستغلال واليطرة على الأهالي بأبشع الأساليب، كإدارة وجمع المعلومات والضرائب، ...، ذات تراتبية حيث نجد مكاتب عربية من الدرجة الأولى إلى مكاتب من الدرجة الثانية، توسع نشاطها لتتحوّل لإدارة محلية لاخضاع الجزائريين، في كلّ الميادين السياسية والاجتماعية والدّينية والثقافية..، وصف شكلها "مارسال إمريت Marcel Emerit: " بأنها عبارة عن مكان متواضع، اقتصر فيه على تهيئة غرفة لاستقبال المترددين والمشتكين، وغرفة أمن محصنة، نوافذها من قضبان حديدية، وأقفال متينة، يتم فيها حبس الجناة والمجرمين".

أبنائهم، وإنّما لِحَضوَة من أحفاذ الأغنياء والمُتَمَكِّنِينَ مادياً وثقافياً، ممّن قبلهم ذات النّظام ليكونوا خُدّاماً فيه وله، بغايات متعدّدة خاصة في (الجيش، من سَبايسِيَةَ، حَركَى، قوميّة...)، للتّكاليف المرتفعة لمستحقّات المدرسة الاستعمارية. مكاتب امتهنت أسلوب القوّة والعنف، لتشريد آلاف الجزائريين، وإخضاعهم حسب "نظام ثابت من العنف المكثّف والمفرط الّذي استمر طيلة قرن كامل".

**أهمية سلاح التّرجمة:**

نظرا لأهمية الترجمة في إيصال المراد من الرسائل وال أوامر للغير، يذكر " Laurent Charles Féraud"[10] بأنّه في جانفي 1830 أصدرت السّلطات الاستعمارية تحت وصاية وزارة الحرب بإشراف الجنرال "De Loverdo" إعلانا لمسابقة انتقاء أوّل دفعة للمترجمين العسكريين بالجزائر (Féraud, 1876). وبحلول شهر ماي تمّ توظيف جيش من المترجمين من الفرنسية الى العربية، خاصّة من المستشرقين، ومنهم "Bracevich" أحد مترجمي "Bonaparte" في مصر. لم يكن الهدف المنشود حينذاك استقطاب وتوظيف مترجمين يتقنون اللّغتين الفرنسية والعربية فحسب، وإنّما أيضا تشكيل سلك من الإداريين الّذين يجمعون بين معرفة القوانين الفرنسية وأعراف العرب وقوانينهم، فحدث وأن تبوّء العديد من هؤلاء المترجمين مناصب هامّة على رأس مصالح حساسة مثل مصلحة الجمارك، الصّحة، الميناء وغيرها من القطاعات (ڤروجي، 2015).

[10]Laurent Charles Féraud , Les interprètes de l'armée D'Afrique (archives du corps), 1876.

- كتب Augustin Bernard " "يجب علينا استقطاب فئات شبابية لحضارتنا، هؤلاء هم الّذين يكونون وسطاء عمليين بيننا وبين الأهالي البسطاء، وإعطاء الصّورة العظيمة لقوّة ورُقي الحضارة الفرنسية"[11]. كما خطّ أحد مفتشي التّعليم "لازمٌ علينا انتقاء واستقطاب بعض الأطفال من هذا الشّعب المهزوم مادياً، ولكنّه القويّ معنوياً، ومُقاوِم، بالمدرسة وبِتَفاني المعلّمين يمكننا تَيسِير اندماج intégration الشّعب الجزائري في الحضارة الفرنسية". بدوره كتب " Luck Dinard" فتحُ مدرسة في وسط الأهالي هو بمثابة إقامة ثكنة عسكرية داخل هذه القرى لتأديبهم، وكأنّك جنّدت كتيبةً لاخضاعها".

## مؤشّرات الرّفض الشّعبي لسياسة التّعليم الاستعماري :

- لعقود عديدة قاوم الجزائريون السّياسة الاستعمارية التّعليمية، حيث عاشوا صدمة ثقافية cultural shock /حَضارية وتعليميّة عنيفة وشديدة الوقع على تماسك البِنيات الثّقافية والفكرية للعقلية/الثّقافة الجزائرية، ما زالت ارتداداتها حتى اليوم. لقد كانت هناك مسافة أخلاقية كبيرة بين المسلمين الجزائريين والأوروبيين (Emerit, 1954). تجسدت من خلال ردّات فعل ضد سياسات "الإبادَة الثَّقافية والإثنِيَة" [12]الممنهجة والمقصودة، الّتي انتهجها منذ اللّحظات الأولى للغَزو.

---

[11] Collection de Gabriel Hanotaux et Alfred Martineau, « Histoire des colonies françaises et l'expansion de la France dans le monde (1930) ». http://aj.garcia.free.fr/site_hist_colo/livre2/l2p105.htm

[12] الإبادة الثقافية (التّطهير الثقافي**Génocide culturel /Cultural genocide**) : مفهوم برز نتيجة نضالات المحامي البولوني "رافائيل ليمكينRaphael Lemkin "، عام 1944، باعتباره مكوّن أساسي من مكونات الإبادة الجماعية. ويقصد به التدمير المتعمّد والمقصود للتراث الثّقافي لشعب أو أمة ما، لأسباب سياسية أو عسكرية أو دينية أو أيديولوجية أو اقتصادية أو عرقية أو إثنية...، كثيرا ما يُقرَن بمفهوم «الإبادة الجماعية» (ويقصد بالإبادة الجماعية سياسة القتل الجماعي المنظّم، ضد

ورغم ذلك برزت نخبة أدركت ووعت الرّهان الحقيقي لها، رغم العثرات، وحتّى الصراعات الّتي ظهرت بين ظهرانيها، تمثل في تبلورت الحركة الوطنيّة بكل تياراتها (الإسلامية، الاشتراكية والشّيوعية، الوطنيّة، الاندماجيّة،..والثّورية..). تفاعلات وصراعات ولّدت "ثورة" أَرْخَت بتأثيراتها على عديد شعوب العالم، خاصّة المستعمَرة منها، وأضحت مُنَبِّه إلهام لها، رغم عثراتها وأخطائها التّاريخية، باعتبارها عملاً بشرياً يشوبه النّقصان شِئنا أو أَبَينا، حتّى أضحت الجزائر تلّقب ب"قِبلة /مكّة الثّورَات Mecca of Revolution "[13]. ثورة لا تُنسب لشخص أو جماعة بعينها، بقدر ما تُنسَب لتضحيات السّواد الأعظم من الجزائريين، خاصّة سكان القرى والمداشِر والأرياف. ثورة سبقها تصحيح/تحضير فكري وعقدي جبار للعقل الجزائري، من خلال محتلف التجارب التعليمية والتنشئوية التي جربها عديد الفاعليين، سواء مجهودات جمعية العلماء المسلمين بمدارسها الإصلاحية، أو بتفاعلات الحركة الوطنية بمختلف تياراتها في صناعة النّباهة /الوعي، بمختلف الوسائل والأدوات[14].

---

جماعات محددة، تطلقه -عادةً – حكومات بعينها ). إنها عمليات تدمير بيولوجي أكثر منه ثقافي، تُرتكب بقصد القضاء الجسدي على مجتمع ما من جانب عنصري ، ديني ، عرقي أو قومي. تم أدراج مصطلح "الإبادة الثقافية" سنة 2007 في إعلان الأمم المتحدة لحقوق الشعوب الأصلية، لكنه حُذف من الوثيقة النهائية. كما استعمل الاثنولوجي "روبرت جولنRobert Gollen " مصطلح «الإبادة الإثنية» كبديل عن «الإبادة الثقافية»، للإشارة تركز الإبادة الثقافية على الارتباط بين العنف الثقافي والجسدي. لكن في بعض البلدان مثل رومانيا وأوكرانيا، التي تبنت تعريف قانوني أوسع، فيقصد بالإبادة الجماعية 'الإبادة الجسدية لمجموعة قومية أو دينية أو اجتماعية'. حيث تم الاعتراف بالدكتاتورية التي تدّعي أنّها شيوعية في 2004 من قبل البرلمان الروماني باعتبارها إبادة جماعية، بعد أن 'نفّذت خطّة متضافرة ومُتعمَّدة للإبادة تحت ذريعة الصّراع الطّبقي والتّطبيق الثّوري.

[13] Jeffrey James Byrne, " Mecca of Révolution : Algeria, Decolonization, and the Third World", Oxford, Order Print publication, 2016.

جيفري بايرن، «قِبَلة الثّورة: الجزائر، نزع الاستعمار، ومنظومة العالم الثالث»، منشورات أوكسفورد، 2016.

[14] لتوسيع النظر يمكن الاطلاع على مقالنا حول : **فعالية الغر افيتيا الثورية في استهاض الوعي الثوري ، غر افيتيا الثّورة الجز ائرية نموذجاً**، دورية "كان Kan" التّاريخية، مجلة علمية دولية محكمة، المجلد 11، العدد 42، ديسمبر/كانون الأول، ديسمبر 2018، مصر، ص 204-214.

- ثورة تعجّب منها " Jeffrey Byrne" قائلا: "أن يعتمدوا على عددٍ قليلٍ من النّاشطين في المدن الجزائريّة وعلى آلافٍ قليلة من المقاتلين الّذين ينتشرون في منطقة القبائل الوَعرَة، وهم لا يملكون تسليحاً يُذكر ، أو تنظيماً من أيّ نوع. نواة «المجاهدين» في حرب التّحرير جاءت مثل القيادة السّياسية من مشارب مختلفة: فلّاحون ثائرون هَربوا الى الجبال، قبائل وبلدات ثارت على الفرنسيين، وحتّى مطلوبين بجناياتٍ، فضّلوا الالتحاق بالمتمرّدين فِراراً من السّلطات. كما فَرّ كريم بلقاسم أحد "التّسعة المؤسّسين" للجبهة، وأحد أبرز وجوه حرب الاستقلال، بعدما كان محارباً في الجيش الفرنسي، مثله مثل بن بلّة، الّذي فرّ لجبال القبائل لاتهامه بجريمة قتل، عام 1947) ". (Byrne, 2016)
- وعملا بوصية النّقيب" Hubert Lyautey" حول الدّور الاجتماعي للعسكري تجاه السّكان الأصليين، خاصّة بالمغرب حيث اشتغل كثيرا، بتقديم صورة الضّابط الحسّاس لاهتماماتهم الاجتماعية la figure de l'officier sensible aux préoccupations sociales (Puyo, 2012)، حيث قال:"من أجل إدارة جيّدة يجب أولاً أن نُحَبَّ".
- تمكّنت السّلطات الاستعمارية من كسب تعاطف و"تَطبِيل" بعض الجزائريين وارتمائهم في أحضانها، بل حوَّلتهم -وتَحوّلوا- لمَعاولَ هَدم وتَخريب للبلاد والعباد[15]. حيث كتب المؤرّخ "محمد حربي" قائلا :

[15] في أكتوبر 1870، منح مرسوم Crémieux (نسبة لـ Adolphe Crémieux) الجنسية الفرنسية فقط للجزائريين ذوي العَقيدة اليهودية (35000 شخص).

*« A l'encontre de ce qui s'est passé en Tunisie et en Égypte, les Algériens ne cherchent pas, pendant plus d'un demi-siècle, à s'approprier les secrets du vainqueur. Les rares éléments qui prennent le chemin des écoles françaises sont considérés par la grande masse comme des renégats, tombés dans le piège tendu à leur ethnie et à leur religion ». (La guerre commence en Algérie, 1984)*

*"على عكس ما حدث في تونس ومصر، لم يبحث الجزائريون لأكثر من نصف قرن عن امتلاك أسرار الُمنتَصِر. حيث تَعتَبِر الغالبية العُظمى منهم العناصر القليلة الّتي اختارت نهجَ المدارس الفرنسية مُرتَدّين وقعوا فخّ تمّ وضعه لعرقهم ودينهم". (محمد حربي، الحرب تبدأ في الجزائر 1984)*

- سياسات وممارسات خلقت ما سماه "Ageron" بمقاومة مؤسّساتية Résistance "institutionnelle" جماعية ومجتمعية. وكرد فعل على هذه (المقاومة الثّقافية والتّعليمية) عمدت السّلطات الاستدمارية لسياسات متعدّدة ومتنوّعة قصد استجداء فَصيلٌ معيّن من الأشخاص لتعليمهم -بل تدجينهم- ليس لسواد عيونهم ولكن لغاية في نفس يعقوب أراد قضاءها. بعدما خرَّبت وأحرقت ودمَّرت كلّ ما له علاقة بالعلم والمعرفة، حتّى قال أحد الغَربيين واصفًا ذلك «إنّ الفرنسيين عندما فتحوا مدينة قسنطينة في شمالي أفريقيا، أحرقوا كلّ الكتب والمخطوطات التّي وقعت في أيديهم، كأنّهم من صميم الهَمَج".
- إذ بعد تخليها عن سياسة التّعليم الجماعي للمسلمين الجزائريين، وبعد صمود الرّفض الشّعبي، استبدلتها بسياسات "بائسة" ترقيعيّة، علّها تستطيع أن تخضع

بشكل ناعم وعميق لإرادتها الاستعمارية الاستيطانية "ضِعاف/صِغار العقول". فأنشأت في بعض المناطق ما عرف بـ"مدارس الغُوربي /الأكواخ Les écoles gourbis"، ببرنامج خاص ومعلّم خاص، وشهادة خاصّة. حيث كان على المعلمين أن يقوموا بوظائف وأدوار عدّة، فكانوا مُدَرِّسين، طبّاخين، نجّارين، وأطبّاء ومسعفين (للإنسان والحيوان)، بل مزارعين لغلاّتهم القريبة من "أكواخِهم/ مدارسهم". مع العلم أنّ هؤلاء المعلمون يتقنون بالإضافة للفرنسية العربية واللّهجات المحليّة، ومنهم من يقرأ القرآن.

- لكن لم تنتشر اللّغة الفرنسية كثيرًا بين الجزائريين البُسطاء، عكس الفرنسيين الأصليين والأجانب المدمجين الّذين استفادوا من التّعليم العام أكثر منهم. مع العلم أنّ الأوروبيين لم يكونوا متحمّسين جدًّا لإنفاق الأموال من أجل 'تعليم السّكان الأصليين'. حيث كان عدد الأطفال الجزائريين الّذين تلقوا تعليمهم بالفرنسية ضئيلاً للغاية، لدرجة أنّ مسؤولاً رفيع المستوى صرّح عام 1880: "لقد أسقطنا تعليم السّكان الأصليين أقل بكثير ممّا كان عليه قبل الفَتحِ" (يقصد الغَزو). فقد كان الجزائري سنة 1830 يقرأ ويَكتب، وبعد نصف قرن من الاستعمار، تراجع الى الجهل والأميّة'.(Lacheraf, 1978)
- للأسف، تعاضدت السّياسات الاستعمارية من تجهيل وتفقير وتجويع مقصود مع آفات الأمراض والأوبئة والجفاف التي كانت نتيجة شبه حتمية لذلك من أجل إفناء

الجزائريين، خاصة بين عامي 1866 و1868، حيث ضاع منهم الثلث من 1830 إلى 1870 (Kamel, 2001) .

- استمرت مقاومة الجزائريون للنّموذج التّكويني/التّرويضي/الاخضاعي الاستعماري حتّى بداية القرن العشرين، بينما أرسلت بعض العائلات الكبيرة أبناءها إلى المشرق العربي للتّمدرس، فضّل/أُرغِم معظم الجزائريين ترك أطفالهم يكبرون في الأميّة على أن ينتسبوا لمدرسة "الكفَّار".
- بالطّبع، كانت هناك فئة صغيرة ثنائية اللّغة، منفتحة على الأفكار الغربية، فضلت التعليم بالفرنسي. موقفان سيضفيان لاحقًا لصّراعات بين ما سُميّ ب"المفرنسين الحداثيين francisants modernistes" و"المعرّبين الإسلاميين التّقليديين arabisants islamisants traditionnalistes" (Leclerc, 2019).
- واصلت فرنسا سياسة الاستنزاف والإبادة بكل معانيها، محاولة تجسيد أسطورة "الجزائر الفرنسيّة" بكل الوسائل والإمكانيات، ومحو الجزائر من التّاريخ لمدّة 132 سنة. كما دفعت بالجزائريين للموت من أجل قضاياها،ففي الح.ع. 1 سقط حوالي 25000 جندي مسلم، مقابل 22000 فرنسي في ساحة المعركة، بالموازاة مع ذلك انتقل للعاصمة باريس حوالي 119 ألف عامل جزائري للعمل في معاملها ومصانعها الرّأسمالية.
- الإبادة والاستلاب متغيّران أساسيان في السّياسة الاستعمارية بالجزائر. فكان مرسوم 1919 الذي منح الجنسيّة الفرنسية لحوالي 20 ألف جزائري، بشروط

قاسيّة عليهم، أخطرها التّخلي عن الأحوال الشّخصية للمسلمين، بمعنى أن يكفروا بدِينهم (الردّة L'apostasie )(Leclerc, 2019) . بقي غالبية الجزائريين المسلمين "رعايا فرنسيين Sujets français" بدل "مواطنين Citoyens " أصحاب حقوق، لأنّهم لم يتخلّوا عن دينهم لصالح دين 'الكفّار'-مع استثناءات-. بل أقدمت فرنسا على ما هو أسوأ من ذلك، بفرضها على الجزائر (وكذلك على جميع مستعمراتها الأخرى) قانون الأهالي Lois des indigènes -المشار إليه سابقاً-. والّذي يعتبر بلغة اليوم شكل من أشكال العبودية المقنّعَة للسّكان الأصليين، لأنّه جرّدَهم من كل عناصر هويتهم .(Leclerc, 2019)

مؤشرات السّياسة التّعليمية "الفاشلة" :

- يذكر " Charles Ageron" كيف أنّ الأوروبين ولفترة طويلة كانوا ينظرون لمنتجات المدرسة الفرنسية بالجزائر بسخرية.... وبدوره يذكر " Pierre Mourlan" أنّه في سنة 1845 كانت نسبة تمدرس أطفال الجزائرين ب"المدارس الفرنسية الجزائرية"ضعيفة بالمقارنة مع أبناء الفرنسين، فمقابل 7 أطفال هناك 100 أوروبي (MOURLAN, 1903). وبشكل عام تشير احصاءات السّكان الأصليين الجزائريين (1911-1936-1948-1954) الى تدني مستوى تمدرس أبناء الجزائريين، بأقل من 10في المائة حتّى أعقاب الحرب العالمية الثّانية، و16.7 في المائة عام 1954 (Kamel, Kateb, 2004). لاحظ جيّدا الجدول التّالي (منقول من

المرجع السّابق) حول تطور التّمدرس الابتدائي بفرنسا والجزائر المحتلَّة لفئة العمرية (6-14 سنة).

Tableau 7 Evolution de la scolarisation dans le primaire en France et en Algérie (6-14 ans)

| Année censi-taire | France : population | | | Algérie : population européenne | | | Algérie : population indigène | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | Scolari-sable | Scolari-sées | Taux | Scolari-sable | Scolari-sée | Taux | Scolari-sable | Scolari-sée | Taux |
| 1911 | 5 958 000 | 5 655 000 | 94,9 | 142 923 | 114 417 | 80,1 | 1 067 537 | 40858 | 3,8 |
| 1936 | 6 193 000 | 5 261 000 | 85,0 | 186 576 | 128 920 | 69,1 | 1 264 655 | 99714 | 7,9 |
| 1948 | 5 345 000 | 4 746 000 | 88,8 | 147 849 | 122 989 | 83,2 | 1 939 563 | 189 573 | 9,8 |
| 1954 | 5 708 000 | 5 573 000 | 97,6 | 160 348 | 137 006 | 85,4 | 1 833 623 | 304 015 | 16,7 |

Tableau reconstitué sur la base des chiffres fournis par les annuaires statistiques de France et d'Algérie.
* Année scolaire 1936-1937, **1946 pour la France.

- .. أما " G. Pervillé" فكتب: هناك نقص فادح في عدد التّلاميذ المسلمين بالمقارنة بالأوروبيين: التّلميذ المسلم أقل من الأوروبي بخمس مرات، في الدروس التّكميلية مسلم واحد من أربعة متمدرسين أوروبيين، أما في المدارس الثانوية نجد 1 من 6، وفي البكالوريا 1 من 7 (PERVILLÉ, 1984).
- كان لفرض اللّغة الفرنسية على المجتمع الجزائري في الإدارة والتّعليم والتّبادل وقع سلبي على مكانة اللّغة العربية وباقي اللّغات المحلية. بل صدر عام 1938 قانون جعل اللّغة العربية 'لغة أجنبية في الجزائر'.

- نشرت لجنة تخطيط المعدّات المدرسيّة في يوليو 1955 تقرير سلبي حول واقع تمدرس الجزائريين الأصليين، حيث كشفت أنّ نسبتهم من التِّعداد العام للمتمدرسين ككل تدرجت من: 5.4٪ في 1930-1931 الى 7.8٪ في 1930-1940 ثم 8.8 ٪ عام 1944 الى 14.6٪ عام 1954.
- إليك بعض الإحصاءات حول تطوّر عدد المدارس والتّلاميذ بالتّعليم العام للأهالي ما بين 1856 و1857 بثلاث مقاطعات الجزائر (الجزائر، وهران، قسنطينة) مقابل عدد المدارس القرآنية لذات المقاطعات من 1932 الى 1951 (Kateb, 2004).

Tableau 2 : L'instruction publique indigène en Algérie en 1856 et 1857

| Subdivision | **Nombre d'écoles 1856** | | **Nombre d'élèves 1856** | | **Nombre d'écoles 1857** | | **Nombre d'élèves** | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | 1er degré | 2e degré | 1er degré | 2e degré | 1er degré | 2e degré | 1er degré | 2e degré |
| Alger | 530 | 77 | 9 485 | 1 777 | 510 | 80 | 9 853 | 1 630 |
| Oran | 1 379 | 813 | 24850 | 6 643 | 1 072 | 569 | 9 852 | 4 410 |
| Constantine | 489 | 154 | 5 889 | 2 061 | 460 | 161 | 5 710 | 2 256 |
| Total | 2 398 | 1 044 | 40324 | 10481 | 2 041 | 810 | 25415 | 8 296 |

Sources : Tableaux des établissements français dans l'Algérie, année 1856-1858.

| Département | 1932-1933 | | | 1937-1938 | | | 1950-1951 | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | Ecoles | Maîtres | Elèves | Ecoles | Maîtres | Elèves | Ecoles | Maîtres | Elèves |
| Alger | 431 | 475 | 8 591 | 352 | 357 | 7 524 | 888 | 940 | 20799 |
| Oran | 690 | 692 | 10313 | 496 | 496 | 6 836 | 1 298 | 1 409 | 19542 |
| Constantine | 801 | 821 | 10624 | 1 573 | 1 597 | 24063 | 3 002 | 3 007 | 41096 |
| Ter. du Sud | 620 | 630 | 6 777 | 727 | 739 | 11870 | 893 | 910 | 22063 |
| total | 2 542 | 2 618 | 36305 | 3 148 | 3 189 | 50293 | 6 081 | 6 266 | 103 500 |

Tableau 3 : Répartition des écoles Coraniques selon les départements

Sources : Statistique général de l'Algérie et Annuaire.